بلاغة القسم بـ(التاء) في القرآن الكريم

م.د.عمر خليل حمدون*

تأريخ التقديم: ٢٠١٣/٥/٢ تأريخ القبول: ٢٠١٣/٦/٥

المقدمة:

الحمدُ لله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى اله وصحبه أهل الصدق والوفا.

وبعد ...

فإنَّ أشرف العلوم ، واجلّها علوم القران الكريم ، وما يتصل بها من علوم العربية ولاسيما البلاغة منها،إذ يتميّز هذا العلم بسموّه ، وعلوّ قدره ، ورفعة شأنه، لأنَّ مدار البحث فيه يبرز وجه الإعجاز البياني للقرآن الكريم .

وانطلاقا من التشرف بخدمة القران العظيم وخدمة علومه جاء بحثنا الموسوم بـ(بلاغة القسم بـ(التاء)في القران الكريم) .

وختاما هذا جهد المقل فان أصبت الخير فمن الله وحده،وان كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان وأنزه كتاب الله من ذلك، والله أسال أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

تنوعت الأساليب التي استعملها القران الكريم،ومن هذه الأساليب أسلوب القسم وهذا الأسلوب في اللغة العربية يعد من المؤكدات التي تمكن الشيء في النفس وتقويه ، والقران الكريم نزل للناس كافة فوقفوا منه مواقف متباينة فمنهم المنكر ومنهم الشاك

* قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية / كلية التربية / جامعة الموصل.

ومنهم الخصم الألد، فجاء القسم في كلام الله تعالى ليزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة ويؤكد الأخبار ويقرر الحكم في أكمل صورة[١].

والقسم هو احد أقسام الإنشاء غير الطلبي ، والإنشاء لا يقل أهميةً عن الخبر، فكما أولى البلاغيون الخبر عناية كبيرة تناولوا الإنشاء بعناية اكبر وخصوصاً الإنشاء الطلبي.

فالإنشاء كما عرّفه البلاغيون هو "الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته"[٢]. ومستند البلاغيين في هذا التعريف إلى أن مدلول اللفظ قبل النطق به ليس له واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه، ولهذا نجد الخطيب القزويني(٧٣٩هـ) رحمه الله تعالى يضع لنا ميزاناً يمكن من خلاله التمييز بين الخبر والإنشاء فيقول:- "ووجه الحصر أن الكلام أما خبر أو إنشاء لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج الأول الخبر والثاني الإنشاء" [٣].

والإنشاء يقسم إلى قسمين الأول الإنشاء الطلبي وهو " ما يستدعي حصول شيء غير حاصل وقت الطلب" [٤]. ويشمل الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء.

أما القسم الثاني : فهو الإنشاء غير الطلبي وهو "ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب"[٥]. ويشمل : صيغ القسم وأفعال المدح والذم وصيغ الترجي وصيغ العقود وصيغ التعجب. والذي يبحث فيه البلاغيون ويهتمون به من هذين القسمين هو القسم الأول الإنشاء الطلبي ولعل السبب في ذلك هو ما يمتاز به من لطائف بلاغية وذلك بخروجه من أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من السياق، أما سبب قلة اهتمام

---

(١) ينظر: مباحث في علوم القران، مناع القطان، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١٧، ١٤٠٦هـ –١٩٨٣هـ : ٢٩١.

(٢) علم المعاني، د. قصي سالم علوان، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥م:٨٨.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) تحقيق وتعليق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، طبع بالاوفست في مكتبة المثنى – بغداد عن مطبعة السنة المحمدية – القاهرة (د. ت) : ١٣/١.

(٤) علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ١٣٩٥ هـ–١٩٧٤م : ٧٥.

(٥) المعاني في ضوء أساليب القران ،عبدالفتاح لاشين، دار المعارف – مصر، ط٤– ١٩٧٨م: ١٦٥.

البلاغيين بالإنشاء غير الطلبي هو قلة الأغراض المتعلقة به ولان أكثر صيغه أخبارٌ نُقِلتْ إلى الإنشاء[١] .

المبحث الأول :القسم لغة واصطلاحاً

القسم لغة : القطع ومنه قسمت الشيء وأقسمت حلفت واصله من القسامة وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم[٢].

واصطلاحاً:- يمين يقسم بها الحالف يؤكد بها شيئا يخبر عنه من إيجاب أو جحد وهو جملة يؤكد بها جملة أخرى[٣].

وأركان القسم ثلاثة:-

١- أداة القسم

الصيغة الأصلية هي الأفعال : اقسم وحلف وآلى مع تعدى الفعل بالباء إلى المقسم به، وأما الحروف فهي : الباء والتاء والواو واللام وأيْمُن، وهناك أفعال كثيرة تؤدي معنى القسم مثل : شهد وعلم ونشد...[٤].

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فعل القسم واكتفى بالباء ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة قال تعالى:﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ الليل: ١ ، وبالتاء في لفظ

(١) البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع، د. احمد مطلوب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٨٠م : ٨٧.

(٢) ينظر: الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين– بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م:٢/٣٢٥ (مادة قَسَمَ).

(٣) ينظر: المخصص، لابن سيده ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت،(ت،د):١٣/١١٠ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش، عالم الكتب – بيروت، (د.ت).:٩/٩٠،ينظر: أساليب القسم في اللغة العربية، كاظم فتحي الراوي:٣٠.

(٤) ينظر:همع الهوامع شرح الجوامع، السيوطي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، (د.ت): ٢/٤٥، أساليب القسم في اللغة العربية، كاظم فتحي الراوي، مطبعة الجامعة – بغداد، ط١، ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م :٥٦ – ١٠٦، النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، ط٤، (د.ت):١/٤٩٢.

الجلالة قال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ الأنبياء: ٥٧، والواو أكثر في الاستعمال من التاء[١].

وسينصب كلامنا على التاء في المبحث الثاني لانها مدار بحثنا.

٢- المقسم به:- ويكون بأمر جليل دائما أو بما يعظمه المقسم به أو بأمر يجله، فقد اقسم سبحانه وتعالى في كتابه بنفسه تعالى وبصفاته نحو قوله تعالى:﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ التغابن: ٧ ، واقسم بفعله قال تعالى:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ الشمس: ٥، وبمفعوله قال تعالى ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾ النجم: ١، والله -كما قال الحسن-: ((أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله))[٢].

٣- المقسم عليه:- هو المراد من القسم توكيده. وتحقيقه ولا سيما إذا كان من الأمور الغائبة والخفية إذا ورد القسم لإثباتها.

وقد اقسم سبحانه وتعالى في كتابه على عدة أمور هي:- أصول الإيمان والتوحيد وعلى أن القران حق وعلى أن الرسول حق وعلى الجزاء والوعد والوعيد واقسم أيضاً على حال الإنسان [٣].

والقسم قد يكون ظاهراً كالآيات السابقة وقد يكون مضمراً،وهذا الأخير قد تدل عليه اللام المقترنة إما بالشرط أو بـ (قد) أو بالفعل المضارع المتصل بنون التوكيد، وهذا النوع من أكثر أساليب القسم وروداً في القران الكريم منها قوله:﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ البقرة: ٩٩ ،وقد يكون المعنى هو الذي يدل عليه أو تكون الألفاظ جارية

(١) ينظر:التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، (د. ت) :٣.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القران،السيوطي(وبالهامش إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني)، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، ١٩٧٣م: ١٣٤/٢، ينظر: التعبير الفني في القران، د بكري الشيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م:٢٣٩-٢٤٤.

(٣) ينظر: التبيان في أقسام القران:٣-٤. الإتقان في علوم القران: ١٣٤/٢-١٣٥.

مجرى القسم نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم: ٧١ (١).

والأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين(٢):

الضرب الأول : – ما ورد على طريق الحكاية ، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين ، كقوله تعالى حكاية لقول إبراهيم – عليه السلام – لقومه : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ الأنبياء: ٥٧ ،وكقوله سبحانه مخبرا عما كان يقوله كفار مكة ، قبل بعثة المصطفى –ﷺ–: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ فاطر: ٤٢ ،وهذا الضرب من القسم كثير في القرآن .

الضرب الثاني : ما أقسم الله تعالى به ، وهذا على نوعين :

النوع الأول : القسم المضمر ، وهو القسم المحذوف ، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام ،كقوله تعالى :﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ آل عمران: ١٨٦ تقديره : والله لتبلون ولتسمعن ، بدلالة الجواب المقرون باللام .

أو المدلول عليه بالمعنى والسياق ،كقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم: ٧١، أي : والله ما من كافر إلا وارد النار ، بدلالة المعنى والسياق ، لأن هذه الآية جاءت بعد آيات مؤكدات بالقسم الملفوظ ، وهو قوله تعالى :﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ مريم: ٦٨ - ٧٠ ،فدل القسم الملفوظ على القسم الملحوظ ، وهذا النوع من القسم كثير في القرآن كذلك .

النوع الثاني : القسم الظاهر ، وهو الملفوظ .

---

(١) ينظر: أساليب القسم في اللغة العربية : ٣٢-٤٠

(٢) ينظر: أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته، وأغراضه،د. سامي عطا حسن،جامعة آل البيت – المفرق،المملكة الأردنية الهاشمية،http://www.shamela.ws :٢-٣.

المبحث الثاني :تاء القسم

تعد التاء إحدى ثلاثة حروف تختص بالقسم وهي كل من الباء والواو والتاء وهذه الثلاثة هي أيضا حروف جر من حيث العمل، وتختص التاء ُ،في انها لا تدخل إلا علي لفظ الجلالة نحو: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ الأنبياء: ٥٧.

بخلاف الواو ،التي تدخل عَلَي الاسم الظاهرِ فقط،نحو:﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ ﴾ الطور: ١ - ٢ ،ونحو:﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾ التين: ١ - ٢ ،وبخلاف الباءُ ، التي لا تختص بلفظ دون لفظ ، بل تدخل علي الاسم الظاهر ، نحو: بالله لأَجْتَهِدَنَّ ، وعلي الضمير ، نحو:بكَ لأضْرِبَنَّ الكَسُولَ .

لكن حكى الأخفش(ت **٢١٥ هـ**) دخول التاء على الرب اذ سمع من العرب أنهم: ((قالوا: ترب الكعبة. وخص بعضهم دخولها على الرب، بأن يضاف إلى الكعبة. وليس كذلك، لأنه قد جاء عنهم: تربي. وحكى بعضهم أنهم قالوا: تالرحمن، وتحياتك. وذلك شاذ)) [١].

وذكر النحاة ان التاء فرع الواو لأن الواو تدخل على كل ظاهر، مقسم به. والواو فرع الباء، قال سيبويه(ت **١٨٠ هـ**): ((والواو التي تكون للقسم بمنزلة الباء، وذلك قولك: والله لا أفعل والتاء التي في القسم بمنزلتها، وهي: تالله لا أفعل)) [٢] لكن قال المرادي(ت**٧٤٩ هـ**): ((وقولهم: إن التاء بدل من الواو، والواو بدل من الباء، استضعفه بعضهم. قال: ولا يقوم دليل على صحته)) [٣]،وقد رجح ابو حيان هذا القول في تفسيره بعد نقله له عن السهيلي (ت**٥٨١ هـ**) فقال: ((والتاء في تالله بدل من واو،

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني،المرادي، تحقيق طه محسن، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٣٩٦ هـ -١٩٧٦م : ٥٧

(٢) الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ودار الرفاعي – الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ٤/ ٢١٧

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني : ٥٧

فهو قول أكثر النحويين، وخالفهم السهيلي فزعم أنها أصل بنفسها وليست بدلا من واو، وهو الصحيح)) [١]

وتأتي التاء لمعنى التعجب من المقسم عليه قال الرماني(ت ٣٨٤ ه):((لأنها لما كانت نادرة في أدوات القسم جعلت للنادر من المعاني، والنادر من المعاني يتعجب منه)) [٢] وقد أحصينا الآيات التي جاء القسم بها بالتاء فوجدناها بلغت تسعة مواضع جاءت على ثلاثة اضرب الأول ما ورد على طريق الحكاية ، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين وورد في خمسة مواضع وهو مابنينا عليه المبحث الثالث ، والثاني القسم ضمن حكاية بعض احوال يوم القيامة وورد في موضعين وهو ما سلطنا عليه الضوء في المبحث الرابع، والثالث ما أقسم الله تعالى به وهو ظاهر ملفوظ وورد في موضعين ايضا وهو ما جاء في المبحث الخامس، وفي الجدول الآتي بيان لهذه المواضع:

ت	الآيات	السورة	نوع القسم
١-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾	يوسف	قسم على طريق الحكاية
٢-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾	يوسف	قسم على طريق الحكاية
٣-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ ﴾	يوسف	قسم على طريق الحكاية
٤-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾	يوسف	قسم على طريق الحكاية
٥-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾	النحل	القسم الظاهر
٦-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾	النحل	القسم الظاهر
٧-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾	الشعراء	القسم ضمن حكاية بعض احوال يوم القيامة
٨-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ ﴿٥٦﴾ ﴾	الصافات	القسم ضمن حكاية بعض احوال يوم القيامة
٩-	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾	الأنبياء	قسم على طريق الحكاية

(١) البحر المحيط،ابوحيان الاندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، والشيخ علي محمود معوض، وشارك في تحقيقه د. زكريا عبد المجيد النوتي، و د. احمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ –٢٠٠١م: ٦/ ٣٠٤

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،البقاعي) ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط١، ١٣٨٩هـ –١٩٦٩م: ١٠/ ١٧٠

المبحث الثالث: القسم بالتاء في القصص القرآني

يقسم هذا المبحث إلى مطلبين :

المطلب الأول القسم بالتاء في قصة إبراهيم عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الأنبياء/٥٧

هذه الآية وردت في سورة الأنبياء التي تحدثت عن جانب من قوة إيمان إبراهيم- عليه السلام- ومن سلامة حجته ومن تصميمه على تنفيذ ما يرضى الله- تعالى- بالقول والعمل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٥١ - ٥٧ ،فسياق الآيات يبين لنا أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ جاء تأكيداً لرده على قولهم (قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ)فرد عليهم بقوله:(قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى(وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)((تأكيدا آخر فعليا، فقال لهم: ((وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ)) أي: وحق الله الذي فطركم وفطر كل شيء، لأجتهدن في تحطيم أصنامكم، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها. وتولوها أدباركم))[1].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام انتقل من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلنا عزمه على ذلك بقوله: ((وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ)) مؤكدا عزمه بالقسم، والواو في قوله ((وَتَٱللَّهِ))عاطفة جملة القسم على جملة الخبر التي قبلها((وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ))

(١) التفسير الوسيط ، محمد سيد طنطاوي:٩/ ٢٢٣

[١]،وقد وقف الزمخشري (ت٥٣٨هـ) على سر عدول القران من الباء في القسم إلى التاء فقال :((فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: أن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه، لأن ذلك كان أمرا مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان، خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصره دينه)) [٢] ،وتختص أيضاً التاء باسم الجلالة [٣]، إلا أن أبا حيان اعترض على الزمخشري بان التعجب أفادته اللام لمجيئها مع القسم ،قال رحمه الله : ((وأما قوله: إن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب فنصوص النحاة أن التاء يجوز أن يكون معها تعجب، ويجوز أن لا يكون واللام هي التي يلزمها التعجب في القسم)) [٤]،وعندما قال إبراهيم عليه السلام هذه المقولة قالها سرّا من قومه ولم يسمعها إلّا رجل واحد منهم، وهو الذي أفشاه عليه وقال: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ الأنبياء:))[٥]، وثمة قول آخر وهو قول السدي (ت ١٢٧ هـ)انه((كان لهم في كل سنة مجمع وعيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال إني سقيم، يقول أشتكي رجلي فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس، ((وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم)) فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن في بهو عظيم مستقبل باب

(١) ينظر:التحرير والتنوير،ابن عاشور تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المسمى بـ (تفسير التحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م)، الدار التونسية للنشر، (د.ت) : ١٧/ ٩٧.

(٢) الكشاف – الزمخشري ،دار الكتاب العربي – بيروت،الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ:٣/ ١٢٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ٩٧

(٤) البحر المحيط : ٦/ ٣٠٠

(٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المسمى بـ(تفسير الثعلبي)، الثعلبي تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور،مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي،دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان،(ت،د): ٦/ ٢٧٩

البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد برّكتِ الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم: على طريق الاستهزاء ألا تأكلون؟، فلما لم تجبه قال: ما لكم لا تنطقون؟. فراغ عليهم ضربا باليمين، وجعل يكسرهن في يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه ثم خرج ذلك قوله عز وجل:﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنبياء: ٥٨ - ٦١))[1]،وأصل الكيد: الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه. وقد عبر به إبراهيم عن تكسير الأصنام وتحطيمها، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير[2]،وفي تسمية تكسيره الأصنام كيدا فن من فنون علم البيان وهو الاستعارة وأيضاً فيه فن من فنون علم البديع وهو المشاكلة التقديرية لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها فلا يستطيع احد أن يمسها بسوء إلا على سبيل الكيد [3]

وفي قوله(بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) إشارة إلى أنه يلحق الضر بالأصنام في أول وقت التمكن منه،فلم يقل (من بعد) [4] ((وهذا من عزمه عليه السلام لأن المبادرة في تغيير المنكر مع كونه باليد مقام عزم وهو لا يتمكن من ذلك مع حضور عبدة الأصنام فلو حاول كسرها بحضرتهم لكان عمله باطلا، والمقصود من تغيير المنكر: إزالته بقدر الإمكان، ولذلك فإزالته باليد لا تكون إلا مع المكنة،ومدبرين حال مؤكدة لعاملها)) [5]،وثمة سؤال يتبادر إلى الأذهان وهو لماذا قال:((لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم)) والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام؟ وقد أجاب الرازي(ت٦٠٦هـ) بجوابين

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن ،البغوي:٥/٣٢٣ -٣٢٤

(٢) ينظر:التفسير الوسيط: ٩/ ٢٢٣.

(٣) ينظر:التحرير والتنوير: ١٧/ ٩٧

(٤) ينظر:نظم الدرر:٥/٩٢.

(٥) التحرير والتنوير: ١٧/ ٩٧.

عن هذا السؤال فقال: إنما((قال ذلك توسعا لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها، وقيل: المراد لأكيدنكم في أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم)) [١]،وقد نفذ إبراهيم عليه السلام ما توعد به الأصنام، فاغتنم فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها، قال تعالى- ((فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)) [٢]

المطلب الثاني: القسم بالتاء في قصة يوسف عليه السلام

ورد القسم بالتاء في قصة يوسف عليه السلام في أربعة مواضع هي:﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾(يوسف: ٧٣)﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (يوسف: ٨٥)﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (يوسف: ٩١)﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ (يوسف: ٩٥)

فالآية الأولى:﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾(يوسف: ٧٣) وردت في رد إخوة يوسف على عمال العزيز الذين اتهموهم بالسرقة كما قص علينا القران ذلك بقوله:﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (يوسف: ٧٠ - ٧٢) فردهم هذا يدل على استنكارهم لهذه التهمة وعلى تأكدهم من براءتهم إذ: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

أى:((قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة: تالله يا قوم، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا، أننا ما جئنا إلى بلادكم، لكي نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم لنرتكب هذه الجريمة، لأنها تضرنا ولا

(١) مفاتيح الغيب:١٥٣/٢٢.

(٢) ينظر:التفسير الوسيط : ٩/ ٢٢٣

تنفعنا، حيث إننا في حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا)) [١].

وبلاغة القسم بالتاء في قولهم يكمن في انها جاءت لـ((معنى التعجب مما أضيف إليهم)) [٢] وقولهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ جاء تأكيدا لذلك القسم ((لأنهم كانوا وفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف- عليه السلام- فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم)) [٣] . ،ويحتمل ((إنما قالوا ذلك؛ لأنهم كانوا جماعة لهم قوة وشدة ولم يكونوا يظلمون أحدا من الطريق ولا يتركون دوابهم تدخل في حرث أحد، وروي أنهم دخلوا مصر حين دخلوا وقد جعلوا الأكمة على رءوس دوابهم لئلا تفسد شيئا،وجواب آخر: أنهم إنما قالوا هذا لأنهم ردوا البضاعة المحمولة في رحالهم قالوا: فلو كنا سارقين ما رددنا البضاعة؛ لأن من يطلب شيئا ليسرقه لا يخلي شيئا وقع في يده)) [٤]، ويحتمل انها وقعت في رحالهم غلطا [٥].

وجملة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ اعتراض بين القسم﴿ تَٱللَّهِ ﴾ وجوابه﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ ، وتكمن فائدتها البلاغية في تقرير إثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة، المعنى:إنكم قد علمتم هذا منا، ونحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه[٦]،والمراد بـ(الأرض) المعهودة، وهي مصر [٧].

---

(١) التفسير الوسيط:٣٩٧/٧.

(٢) الكشاف: ٢/ ٤٩٠،وينظر:مدارك التنزيل وحقائق التأويل،النسفي) ،حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو،دار الكلم الطيب، بيروت،الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م:٢/ ١٢٥،وروح البيان،اسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربى:٤/ ٢٩٩،.

(٣) التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٩.

(٤) تفسير القران ،السمعاني ٣/ ٥٠-٥١.

(٥) ينظر:التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٩.

(٦) ينظر:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير: (٣/ ٤٢)، وينظر: شرح نهج البلاغة: ٩/ ٤٢، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،العلوي:٢/ ٩٠.

(٧) ينظر:التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٩.

ويحتمل قولهم (وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ) وجهين: الأول: ما كنا سارقين من غيركم فنسرق منكم. والثاني: ما كنا سارقين لأمانتكم فنسرق غير أمانتكم. ولعل الثاني هو الأرجح لأنهم أضافوا بذلك إلى عملهم(١).

والمتأمل في التعبير القرآني (وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ) يجد أنهم نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا به الإفساد عنهم، لأنهم نفوا الكون دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق، لأن السرقة وصف يتعير به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عارا، ولكنه يعد اعتداء في نظر العدو (٢).

فاخوة يوسف عليه السلام حلفوا على أمرين: أحدهما:أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، كما ذكرنا انفا.

والثاني: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها، والسارق لا يفعل ذلك البتة(٣).

الآية الثانية:قوله تعالى:﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (يوسف: ٨٥)

في هذه الآية يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم والحزن﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يوسف: ٨٤ ،فيقول:﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

(١) ينظر:النكت والعيون– الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، (د.ت): ٣/ ٦٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٩.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية – طهران، ط٢، (د.ت) ١٨:/ ٤٨٧

ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾[1]،فالتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم لكن فيها زيادة معنى وهو التعجب لأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم،وجواب القسم هو﴿ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ باعتبار ما بعده من الغاية، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف– عليه السلام– وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف[2].

قال الشوكانى(ت ١٢٨١هـ): ((((قالُوا تَاللَّه تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ أي لا تفتأ))، فَحُذِفَ حَرْفُ النَّفْيِ لِعَدَمِ اللَّبْسِ. قَالَ الْكِسَائِيُّ: فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أَفْعَلُ كَذَا، أَيْ: مَا زِلْتُ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: إِنَّ لَا مُضْمَرَةٌ، أَيْ:لَا تَفْتَأُ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَالَّذِي قَالَ صَحِيحٌ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ مِثْلُ قَوْلِ الْفَرَّاءِ،))[3]،فـ"لا" حذفت من قوله: (تفتأ)((وهي مرادة في الكلام، لأن اليمين إذا كان ما بعدها خبرًا لم يصحبها الجحد، ولم تسقط"اللام" التي يجاب بها الأيْمان، وذلك كقول القائل:"والله لآتينَّك"، وإذا كان ما بعدها مجحودًا تُلُقِّيت بـ"ما" أو بـ"لا". فلما عرف موقعها حُذِفت من الكلام، لمعرفة السامع بمعنى الكلام،ومنه قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأَوْصَالِي

(١) ينظر: التفسير الوسيط:٧/ ٤٠٧

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:١٣/ ٤٣

(٣) فتح القدير،الشوكاني،دار النشر : دار الفكر – بيروت،(ت،د):٣/ ٥٨،وينظر:معاني القرآن للفراء، عالم الكتب – بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م :٢/ ٥٤، إعراب القرآن،النحاس وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ:٢/ ٢١٣ .

فحذفت"لا" من قوله:"أبرح قاعدًا"))[١]، فـ(لا) حذفت لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتا لم يكن بدّ من اللام والنون[٢]،فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي[٣]،وهذا الحذف أفاد فنا من فنون علم المعاني وهو إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ[٤].

والحرض: الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض أو غيرهما، وَأَصْلُ الْحَرَضِ: الْفَسَادُ فِي الْجِسْمِ، وَالْعَقْلِ مِنَ الحزن والهرم، أو العشق أو الهمّ، يُقَالُ: رَجُلٌ حَرَضٌ وَامْرَأَةٌ حَرَضٌ، وَرَجُلَانِ وَامْرَأَتَانِ حَرَضٌ، وَرِجَالٌ وَنِسَاءٌ كَذَلِكَ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ وَالْجَمْعُ وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ [٥]

والمعنى:((قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهو يتحسر على فراق يوسف له: تالله– يا أبانا– ما تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف، والحزن المضنى، «حتى تكون حرضا» . أى: مشرفا على الموت لطول مرضك،»أو تكون من الهالكين» المفارقين لهذه

(١) جامع البيان في تأويل آي القران،الطبري تحقيق: أحمد محمد شاكر،مؤسسة الرسالة،الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م:١٦/ ٢٢١،وينظر:البيت في ديوان امرئ القيس ديوان امرئ القيس،امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م)،اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة – بيروت،الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م : ١٣٧.

(٢) ينظر: الكشاف:٢/ ٤٩٨،وأسرار العربية، أبو البركات الأنباري،دار الأرقم بن أبي الأرقم،الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م : ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل،البيضاوي،تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت،الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ:٣/ ١٧٤، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي:٢/ ١٣٠،والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي،تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي،الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت،الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ:١/ ٣٩٤.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير،الصابوني، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم – بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م:٢/ ٦٠.

(٥) ينظر جامع البيان في تأويل آي القران:١٦/ ٢٢٢، معاني القرآن،الفراء:٢/ ٥٤،معالم التنزيل:٢/ ٥٠٩.

الدنيا)) [١] ، فمقصودهم الإنكار عليه صدا له عن مداومة ذكر يوسف– عليه السلام– على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه [٢]،وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ فن من فنون علم البيان هو التعريض بأنه يذكر أمرا لا طمع في تداركه، فأجابهم بأن ذكره يوسف– عليه السلام– موجه إلى الله دعاء بأن يرده عليه. فقوله:في الآية السابقة ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ يوسف: ٨٤ أيضاً تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف– عليه السلام– إليه لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة [٣].

وثمة سؤال يثار وهو: كيف حلفوا على شيء يجوز أن يتغير؟ وقد أجيب أن في الكلام إضماراً، تقديره: إن هذا في تقديرنا وظننا[٤].

وقد اشتملت الآية على فن أصيل في البلاغة هو نسمة الحياة في علم البلاغة، وعموده الذي يقوم عليه هذا الفن هو (ائتلاف اللفظ مع المعنى)، ويتلخص بأن تكون ألفاظ المعنى المراد متلائمة بعضها مع بعض، ليس فيها لفظة نابية أو قلقة عن أخواتها بحيث يمكن استبدالها[٥]،فإنه((سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة الى أخواتها وهي التاء لأن الواو والباء أكثر دورانا على الألسنة منها أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال الناقصة التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها وهي تفتأ وحذف منها حرف النفي زيادة في الإغراب ولأن المقام لا يلتبث بالإثبات على حد قول امرئ القيس:

---

(١) معاني القرآن،الفراء:٢/ ٥٤،وينظر: مجاز القرآن،ابوعبيدة المحقق: محمد فواد سزگين،مكتبة الخانجى – القاهرة،الطبعة: ١٣٨١ هـ :١/ ٣١٧، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق،بنت الشاطئ، دار المعارف،الطبعة: الثالثة:٥٠٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:١٣/ ٤٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه :١٣/ ٤٤

(٤) ينظر:زاد المسير في علم التفسير،ابن الجوزي،تحقيق: عبد الرزاق المهدي،دار الكتاب العربي – بيروت،الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ:٢/ ٤٦٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، دار ابن حزم – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.:٢/ ٥٥٠.

(٥) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ، محمود بن عبد الرحيم صافي،دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت،الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ:١٣/ ٥١.

فقلت: يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وكذلك لفظ «حرضا» أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك فاقتضى حسن النظم وحسن الوضع فيه أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة والاستعمال توخيا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم)) [١]،قال ابن الإصبع العدواني: ((فإنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها، فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله لما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ وأعرف عند الكافة، ولذلك أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة، وهي لفظة حرض ولما أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضع((وأقسموا بالله جهد أيمانهم)) لما كانت جميع الألفاظ مستعملة)) [٢] .

فهذا السياق((الذي تتزاحم فيه الكلمات الغريبة مشيعة جو الغرابة، والوحشة مناسب لمقصودهم الذي يريدون حمل أبيهم عليه، فهم يريدون أن ينسى يعقوب عليه السلام ولده، وليس في الغرائب أغرب من هذا، وحذف حرف النفي، وهو خلاف الأصل يأتي متلائما مع هذا السياق الغريب، ويرمز في خفاء إلى حاجتهم، وهي نسيان يوسف، وإبعاده من قلب أبيهم الذي ضاق بهم، وتولى عنهم من أجل يوسف)) [٣].

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ،ودار اليمامة – دمشق – بيروت،و دار ابن كثير – دمشق – بيروت،الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ:٥/ ٤٠

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الإصبع العدواني،تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف،الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي:١٩٥-١٩٦، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الهاشمي ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت،(ت،د):٣٣٤.

(٣) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة،الطبعة: السابعة،(ت،د): ١٥٦-١٥٧.

الآية الثالثة: قوله تعالى:﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف: ٩١)

هذه الآية تكشف لنا ما انتاب إخوة يوسف عليه السلام من خزي وخجل،حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم، فتمثلت لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، يجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم فقالوا له في استعطاف وتذلل: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[1] أي: نقسم بالله- تعالى- لقد اختارك الله- تعالى- لرسالته، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة،أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك، ومتعمدين لما ارتكبناه في حقك من جرائم، ولذلك أعزك الله- تعالى- وأذلنا، وأغناك وأفقرنا، ونرجو منك الصفح والعفو[2].

وجاء جوابهم مفتتحا بالقسم بالتاء ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ التي فيها معنى التعجب لان يوسف عليه السلام آتاهم ما لم يكونوا يحتسبون فقالوا متعجبين غاية التعجب ولذلك أقسموا بما يدل على ذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾[3]،و((صيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأن ما ناله هو تفضيل من الله وأنهم عرفوا مرتبته، وليس المقصود إفادة تحصيل ذلك لأن يوسف عليه السلام يعلمه)) [4].

(١) ينظر:في ظلال القران،سيد قطب،دار الشروق - بيروت- القاهرة،الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ: ٤/ ٢٠٢٧

(٢) ينظر:التفسير الوسيط :٧/ ٤١٢-٤١٣.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١٠/ ٢٠٩

(٤) التحرير والتنوير:١٣/ ٥٠،وينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان،الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م:٦/ ٢٨٣

والإيثار: التفضيل بالعطاء، ويستعار آثر للفضل والإيثار للتفضيل[١] ،والمراد: الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من النعم[٢].

ثم اعترفوا بذنبهم إذ قالوا: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾والخاطئ: فاعل الخطيئة، أي الجريمة، فنفعت فيهم الموعظة[٣]،والفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ آثم[٤]،بخلاف المخطئ لان((المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قولهم المجتهد يخطئ ويصيب والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي)) [٥]،وثمة ملحظ بلاغي في استعمال (إن)المخففة من الثقيلة وهو التأكيد((بالإيجاز للدلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرع وقت)) [٦]،فإن قيل: أنهم عندما ارتكبوا جريمتهم كانوا صغاراً ترفع عنهم الخطايا. أجيب بأنهم لما كبروا واستداموا إخفاء ما صنعوا صاروا حينئذ خاطئين[٧]،وإخوة يوسف أقسموا على حقيقتين:

الأولى: أن اللَّه آثر يوسف عليه السلام بالفضل والإحسان والتوفيق ، فقد أعطاه النجاة من الموت والرق، والسلطان على مصر ، فصار ملكاً عزيزاً، وهم دونه، وأكدوا هذه الحقيقة:بـ (القسم)،(اللام)، و(قد).

والحقيقة الثانية: أنهم أحسوا بأنهم كانوا آثمين، ولذا قالوا: (وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ)، (إِن) هي المخففة من الثقيلة وإنه الحال والشأن كنا لخاطئين، والخاطئ هو الواقع في الإثم، أو

(١) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، القِنَّوجي،عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م: ٦/ ٣٩٥،والتحرير والتنوير:١٣/ ٥٠. عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م: ٦/ ٣٩٥،والتحرير والتنوير:١٣/ ٥٠.

(٢) ينظر :المحرر الوجيز،ابن عطية،تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد،دار الكتب العلمية – لبنان ، الطبعة: الأولى،١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م:٣/٢٧٧،والتحرير والتنوير:١٣/ ٥٠.

(٣) التحرير والتنوير:١٣/ ٥٠.

(٤) ينظر:النكت والعيون، الماوردي:٣/ ٧٥

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن ٦/ ٣٩٥،وينظر: الصحاح :١/ ٤٧،ولسان العرب:١/ ٦٧.

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :١٠/ ٢١٠

(٧) ينظر:النكت والعيون:٣/ ٧٥

الخطيئة، وقد أكدوا إثمهم أولا بـــ (إنْ) المخففة من الثقيلة، و (كان) الدالة على اســتمرار خطئهم، و (لام التوكيد) (لَخَاطِئِينَ) وهذا اعتراف منهم وهو أول خطوات التوبة[1].

الآية الرابعة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾

هذا هو الموضع الأخير الذي يرد فيه القسم بـــ(التاء) في قصة يوسف عليه السلام فقــد أشــم الله– تعالى– يعقوب عليه السلام ما عبق من القميص من رائحة يوسف من مــسيرة أيــام، وهــذه معجزة ظاهرة له– عليه الصلاة والسلام–لكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القــول، لم يشموا ما شمه، ولم يجدوا ما وجده، فردوا عليه بقولهم: قالوا تالله إنــك لفــي ضــلالك القديم.

وقـــولهم﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ جـــاء علـــى ســـبيل التسلية،والمعنى:إنك ياابانا ما زلت غارقا في خطئك القديم الذي لا تريد أن يفارقك. وهــو حبك ليوسف وأملك في لقائه والإكثار من ذكره، لكن ما وجده يعقوب من رائحة يوســف تحقق وحان أوان المفاجأة التي حكاها القرآن في قوله:﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ يوسف: ٩٦ [2].

ولكي يتضح لدينا معنى الآية أتم الاتضاح سنقف على الآية التي قبلها وهي قوله تعــالى﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ يوسف: ٩٤

فسيدنا يعقوب عليه السلام قال:(لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ)،((أي إلا أن تنسبوني إلى الفَنَد، والفنــد نقــصان عقل بسبب الشيخوخة، وما هي شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة. و (لَوْلا) حرف شــرط وتعليق، وجوابه محذوف، أي لولا أن تفندوني لصدقتم، ولآمنتم بــالحق، وتقــدير التفنيــد لعقليتهم غير المدركة، لَا للأمر في ذاته)) [3].

(١) ينظر:زهرة التفاسير،محمد ابو زهرة،دار الفكر العربي،،(ت،د):٧/ ٣٨٥٦

(٢) ينظر:التفسير الوسيط :٧/ ٤١٤.

(٣) زهرة التفاسير:٧/ ٣٨٥٩.

ولكن المحيطين بيعقوب عليه السلام لم يكن لهم ما له عند ربه، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾[١]،والضمير في (قَالُوا) يعود إلى الحاضرين، ويظهر أن بعضهم ذهب في العير للقاء عزيز مصر، وبعضهم بقي مع أبيه، فأقسموا مؤكدين بأنه ليس فند الشيخوخة، ولكنه حال قديمة، وقالوا إنه ضلال قديم لازمك، ولذا أضافوا الضلال إليه عليه السلام، وهو زعمهم الكاذب فنبي اللَّه مستحيل أن يكون ضالا، ومهما يكن فقد نفوا عنه فند الشيخوخة،وكل ذلك قبل أن يجيء البشير[٢]،وجاء القسم بالتاء بما يدل على تعجبهم{تالله}وأكدوا لمعرفتهم أنه ينكر كلامهم وكذا كل من يعرف كماله {إنك لفي ضلالك} أي بحيث صار ظرفاً لك[٣]،واختلف المفسرون في قوله :{ لفي ضلالك القديم}على أربعة أقوال:((أحدها: أي في خطئك القديم , قاله ابن عباس وابن زيد. الثاني: في جنونك القديم , قاله سعيد بن جبير. قال الحسن: وهذا عقوق. الثالث: في محبتك القديمة , قاله قتادة وسفيان. الرابع: في شقائك القديم , قاله مقاتل))[٤],فالضلال هنا لا يراد به ضد الهدى والرشاد[٥]،وتكمن بلاغة الحرف الجر (في)المفيد لمعنى الظرفية في قوله : { لفي ضلالك القديم}أي صار الضلال ظرفاً له[٦]،فالظرفية مجاز في قوة الاتصاف والتلبس وأنه كتلبس المظروف بالظرف[٧].

وجملة﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ إنكارية لمجيء أكثر من مؤكد وهو القسم وإنَّ واللام [٨].

---

(١) ينظر:في ظلال القرآن:٤/ ٢٠٢٨.

(٢) ينظر:زهرة التفاسير:٧/ ٣٨٥٩.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١٠/ ٢١٣.

(٤) النكت والعيون:٣/ ٧٨.

(٥) البحر المحيط:٦/ ٣٢٤.

(٦) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١٠/ ٢١٣.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير:١٣/ ٥٣.

(٨) ينظر: صفوة التفاسير:٢/ ٦٤.

المبحث الرابع: القسم ضمن حكاية بعض أحوال يوم القيامة

وهذا المبحث يقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول:اختصام الْإِنْس وَالْغَاوِينَ مع الْمَعْبُودِينَ وَالشَّيَاطِينَ في جهنم ورد القسم بـ(التاء) في حكاية اختصام الْإِنْس وَالشَّيَاطِينَ وَالْغَاوِينَ وَالْمَعْبُودِينَ في جهنم في موضع واحد وهو قوله تعالى:﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ الشعراء: ٩٧

ففي هذه الآية والتي قبلها يبين – سبحانه – ما قاله الغاوون لآلهتهم إذ :﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الشعراء: ٩٦ – ٩٨ أي : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون[1] .

وقوله: (تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾): يحتمل ان يكون موجها للأصنام التي عبدوها، وذلك في تسميتهم آلهة، والعبادة لها تسويتا لها برب العالمين في التسمية والعبادة.

و يحتمل ان يكون موجها للشياطين، لاتباعهم أمرهم ودعاهم الذي دعوهم، وإلا لا أحد من الكفرة يقصد قصد عبادة الشيطان أو يسميه: إلها، ولكن على ما ذكرنا من متابعتهم أمرهم[2].

وجاء ((القسم بالتاء دون الواو والباء لأن التاء تختص بالقسم في شيء متعجب منه ... فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئا. ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين، أي الواضح البين. وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة

(١) ينظر: تفسير الوسيط:١٠/ ٢٥٩-٢٦٠

(٢) ينظر:تأويلات أهل السنة:٨/ ٦٨.

من عقل))[١]،وايضا في وصف الضلال بكونه مبينا((للمبالغة في إظهار نـدمهم وتحـسرهم وبيان خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصديرهم قـسمهم بحـرف التـاء المشعرة بالتعجب))[٢].

المطلب الثاني: قول المؤمن من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ورآه في النـار ورد القـسم بـ(التاء) في قول واحد من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ورآه في النار في موضع واحـد وهو قوله تعالى:﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الصافات: ٥٦

فالقران حكى ما قاله ذلك المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول:﴿ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الصافات: ٥٤ ـ ٦١

أي : قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى فى وسط جهنم ، وحق الله – تعالى – لقـد كدت أيها القرين أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى علىّ ، حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى للإيمان . . لكنت اليوم من الذين أحـضروا للعـذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذي أنت فيـه اليـوم ، فحمدا لله – تعالى – على الإيمان والهداية [٣].

وجملة ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ جاءت ((مستأنفة استئنافا بيانيا لأن وصف هذه الحالـة يثير في نفس السامع أن يسأل: فماذا حصل حين اطلع؟ فيجاب بأنه حين رأى قرينـه أخـذ يوبخه على ما كان يحاوله منه حتى كاد أن يلقيه في النار مثله. وهذا التوبيخ يتضمن تنديمـه على محاولة إرجاعه عن الإسلام)) [٤].

---

(١) التحرير والتنوير:١٩/ ١٥٣.

(٢) روح المعاني،الالوسي،تحقيق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ:١٠/ ١٠١.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط :١٢/ ٨٦.

(٤) التحرير والتنوير:٢٣/ ١١٧.

وجاء القسم بالتاء الذي من شأنه أن يقع فيما جواب قسمه تعجب أو غرابة، لأنه تعجب من سلامته منه إذ كان قرينه قارب أن يرديه وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّه عليه وهي التوفيق والعصمة لَكُان مِنَ الْمُحْضَرِينَ للعذاب ولان محل الغرابة هو خلاصه من شبكة قرينه واختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة وما حفه من نعمة الهداية وما تورط قرينه في أوحال الغواية[1].

والرَّدَى: الهلاك، والتَّرَدِّي: التّعرّض للهلاك[2]،و(لَتُرْدِينِ)((توقعني في الردى وهو الهلاك، وأصل الردى: الموت ثم شاعت استعارته لسوء الحال تشبيها بالموت لما شاع من اعتبار الموت أعظم ما يصاب به المرء.

والمعنى: أنك قاربت أن تفضي بي إلى حال الردى بإلحاحك في صرفي عن الإيمان بالبعث لفرط الصحبة. ولولا نعمة هداية الله وتثبيته لكنت من المحضرين معك في العذاب)) [3].

المبحث الخامس: القسم الظاهر بـ(التاء)

ورد القسم الظاهر بالتاء في موضعين في القران الكريم وكلاهما في سورة النحل وهما قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾وقوله﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

في هذه الآية يحكي القران حالة من أحوال الكفار لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، وهي من تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربهم، إذ جعلوا في أموالهم حقا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا. كما قال تعالى:﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ

(١) ينظر: البحر المحيط:٩/ ١٠٥، وروح المعاني:١٢/ ٩٠، والتحرير والتنوير:٢٣/ ١١٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن،الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ: ٣٥١

(٣) التحرير والتنوير:٢٣/ ١١٨.

لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَىٰٓ ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ الأنعام: ١٣٦،إلا أنه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأن المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كل ذلك منكرا عليهم، إلا أن بعض الكفر أشد من بعض.

والجعل: التصيير والوضع. تقول: جعلت لك في مالي كذا. وجيء هنا بصيغة المضارع للدلالة على تجدد ذلك منهم واستمراره، بخلاف قوله تعالى: وأقسموا بالله [سورة النحل: ٣٨] بأنه حكاية قضية مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث[١].

وضمير الجمع في قوله «لما لا يعلمون» يُحْتَملُ في رجوعه قولان[٢] :

الأول: يصح أن يعود إلى الكفار، كالذي قبله في «ويجعلون» .

فيكون المعنى: إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله– تعالى– ومن التضرع إليه عند الضر ونسيانه عند الرخاء.. ولا يكتفون بذلك، بل ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا، نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما.

والثاني:يصح أن يعود ضمير الجمع في قوله «لما لا يعلمون» للأصنام، فيكون المعنى: ويجعلون للأصنام التي لا تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر.. يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم، وإنما جاء الضمير الذي لجمع العقلاء((لوصفهم الآلهة بصفاتهم)) [٣] ومفعول يعلمون ((متروك لقصد العموم)) [٤].

وإنما عبر عن الأصنام ((بهذه الصلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم، إذ يفرضون في أموالهم عطاء يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بله مبلغ ما ينالهم منها، وتخيلات يتخيلونها ليست من الوجود ولا من الإدراك ولا من الصلاحية للانتفاع في شيء، كما قال

(١) ينظر: التحرير والتنوير:١٤/ ١٨٠.

(٢) ينظر:التحرير والتنوير:١٤/١٨١،وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،الشنقيطي،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان،١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م:٢/ ٣٨٦،والتفسيرالوسيط:٨/ ١٧١.

(٣) روح المعاني:٧/ ٤٠٦.

(٤) روح المعاني:٧/ ٤٠٦.

تعـــالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ النجم: ٢٣)) [١].

وجاء ﴿ نَصِيبًا ﴾ نكرة((للإيماء بأنه نصيب كبير وضعوه في غير موضعه ووصفه بأنـــه مما رزقهم- سبحانه- لتهويل جهلهم وظلمهم، حيث تركوا التقرب إلى الرازق الحقيقي- جل وعلا-، وتقربوا بجانب كبير مما رزقهم به- سبحانه- إلى جمادات لا تغنى عـــنهم شـــيئا)) [٢]،ثم زاد الحق سبحانه وتعالى التشنيع عليهم بقوله :﴿ مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فقد وصف((النـــصيب بأنه مما رزقناهم لتشنيع ظلمهم إذ تركوا المنعم فلم يتقربوا إليه بما يرضيه في أموالهم ممـــا أمرهم بالإنفاق فيه كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرب إلى أشياء موهومة لم تـــرزقهم شيئا)) [٣]. ثم جاء القسم بـــ(التاء) ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمـــرا عجيبا ومستغربا، كما ذكرنا فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يـــسألون ســـؤالا عجيبا بمقدار غرابة الجرم المسئول عنه[٤].

ثم وجه الخطاب إليهم ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾على طريقة الالتفات مـــن الغيبـــة إلـــى الحضور، وهو من بديع الكلام وبليغه لقصد التهديد[٥]،وهو تهديد ((قد أكده ســـبحانه بالقـــسم بذاته العلية وبتلك الصيغة القوية، وهي القسم بالتاء، وباللام، وبنون التوكيد الثقيلـــة، وأنهـــم مسئولون عن هذا الافتراء)) [٦]، وصدرت جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقـــه، إذ الـــسؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد، والسؤال كناية عما يترتب عليـــه من العقاب، لأن عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عما اقترفه إذ لعل له مـــا

(١) التحرير والتنوير:١٤/ ١٨١.
(٢) التفسير الوسيط :٨/ ١٧١- ١٧٢.
(٣) التحرير والتنوير:١٤/ ١٨١.
(٤) ينظر: لتحرير والتنوير:١٤/ ١٨١.
(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل:٣/ ٨٢، وينظر:التحرير والتنوير:١٤/ ١٨١.
(٦) زهرة التفاسير٨/ ٤١٩٧.

يدفع به عن نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السنن الشريف. والتعبير عنه بـ ((كنتم تفترون)) كناية عن استحقاقهم العقاب لأن الكذب على الله جريمة[١].

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجددا ومستمراً منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عما تفترون، وعما افتريتم[٢]، و((سمى اللَّه سبحانه وتعالى ذلك افتراء وكذبا مقصودا؛ إذ أشركوا، وكذبوا على اللَّه وعلى أنفسهم، وضلوا إذ نذروا لما لَا يعلمون له حقيقة، وضلوا بذلك ضلالا بعيدا)) [٣].

الآية الثانية:قال تعالى:﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ ﴾

هذه الآية الكريمة تبين أن حال المشركين المتحدث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم كحال الأمم الضالة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود،والحاضرة كاليهود والنصارى[٤]، والآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم((على سبيل التسلية والتثبيت، حيث بين له أن ما أصابه من مشركي قومه، قد فعل ما يشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم))[٥].

وابتدأت الآية بالقسم بـ(التاء)ومن شأنها أن تقع في قسم على مستغرب،ومصب القسم هنا هو قوله تعالى: ((فزين لهم الشيطان أعمالهم)) لأن تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعد ما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب[٦].

وأضيف الإرسال إليه سبحانه وتعالى اذ قال: ﴿أَرۡسَلۡنَآ ﴾ليعلم أن الرسالة من اللَّه سبحانه وتعالى رب هذا الوجود، والأعلم بما يصلح الناس، وما يخاطبون به، وما يبلغون

---

(١) ينظر: لتحرير والتنوير:١٤/ ١٨٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه:١٤/ ١٨١.

(٣) زهرة التفاسير:٨/ ٤١٩٧.

(٤) ينظر: لتحرير والتنوير (١٤/ ١٩٣)

(٥) التفسير الوسيط :٨/ ١٨٠،وينظر: الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي:١٠/١٢١، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :٥/ ١٢٣، روح المعاني:١٤/ ١٧٣.

(٦) ينظر:التحرير والتنوير:١٤/ ١٩٤.

الرسالة عن طريقهم، وأنهم رجال يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، ويموتون، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٤ [١].ووجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله(مِّن قَبْلِكَ) لقصد إبلاغه إلى أسماع الناس لأن القرآن منزل لهدي الناس، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر وهم (الناس) لا إلى الموجه إليه الخبر وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك،ومصب القسم هو التفريع في قوله تعالى: فزين لهم الشيطان أعمالهم،وأما الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون. فجملة (فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ) معطوفة على جملة جواب القسم. والتقدير:أرسلنا فزين لهم الشيطان أعمالهم[٢].

والقران جاء بصيغة الجمع (إِلَى أُمَمٍ) فلم يقل إلى (الأمة) للدلالة على أن الأمم السابقة وان كانت مختلفة الأزمنة متباينة المشارب والأجناس إلاَّ أنهم التقوا على أمر جامع بينهم، وهو الشيطان الذي يزين لهم أعمالهم الفاسدة المفرقة لجمعهم [٣]، ولذا قال سبحانه: (فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) و(الفاء) في قوله تعالى ﴿فَزَيَّنَ ﴾((للترتيب والتعقيب، أي أن اللَّه تعالى أرسل إليهم الرسل بالهداية، فكان وراء الرسول الهادي تزيين الشيطان يهدم ما يدعو إليه الرسول يزين في قلوبهم الخبيث فيجعله حسنا في زعمهم، واللَّه تعالى يقرر على لسان رسوله أنه باطل ما يصنعون))[٤]،وتزيين الشيطان أعمالهم هو كناية عن المعاصي [٥].

وجملة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ المصدرة بالفاء يجوز أن تكون مفرعة على جملة القسم بتمامها، فيكون ضمير وليهم عائدا إلى المنظرين بقرينة السياق والمعنى: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي متولي أمرهم كما كان ولي الأمم من قبلهم إذ زين لهم أعمالهم، أي لا ولي لهم اليوم غيره ردا على زعمهم أن لهم الحسنى،وعلى هذا التقدير يكون في الكلام فن

(١) ينظر: زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٥.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير:١٤/ ١٩٤.
(٣) ينظر: زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٦.
(٤) زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٦.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير:١٤/ ١٩٤.

من فنون الإيجاز بالحذف وهو الاحتباك. والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فـزين لهـم الشيطان أعمالهم فكان وليهم حينئذ، وهو ولي المشركين اليوم يزين لهم أعمالهم كمـا كـان ولي من قبلهم [١]،ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى قريش بقياسهم على من سبقوهم، لبيـان أنهم أولياء الشيطان بهذا التزيين المستمر[٢]، وإنما سماه الله سبحانه وتعالى وليا لهم لطاعتهم إياه[٣].

وقولـه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يحتمل أمرين[٤]: الأول: يوم القيامة،والمعنى: فهو وليهم يوم تكون لهم النار،((ويكون الوليّ بمعنى الناصر والمراد نفي الناصر عـنهم علـى أبلـغ الوجـوه لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة وإذا كان الناصر منحصراً فيه لـزم أن لا نصرة من غيره)) [٥]. والثاني: أنه الدنيا،والمعنى:فهو مـواليهم فـي الـدنياَ ،فـاليوم ((مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور، أي فهو وليهم الآن. وهو كناية عـن اسـتمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلم مطلقا بدون قصد، لما يدل عليه لفظه من الوقت الذي من طلـوع الفجر إلى غروب الشمس)) [٦]. ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى عـاقبتهم، فقـال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ((أي مؤلم إيلاما لَا نعرف له في الدنيا حدوداً، وولايتهم على أي حال في الدنيا، وأمـا في الآخرة فيتبرأ منهم))[٧].

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الممتعة في كتاب الله عز وجل نقف عند الخاتمة لنحصد أهم النتـائج التي يمكن أن نجملها بالاتي:

---

(١) المصدر نفسه:١٤/ ١٩٤–١٩٥،وينظر: زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٦.

(٢) زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٦.

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل:٣/ ٨٤.

(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة:٦/ ٥٢٤ ،وزاد المسير في علم التفسير:٢/ ٥٦٧، والكشاف :٢/ ٦١٤ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:٥/ ١٢٣.

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن:٧/ ٢٦٦.

(٦) التحرير والتنوير:١٤/ ١٩٤–١٩٥.

(٧) زهرة التفاسير:٨/ ٤٢٠٦.

– الأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين:الضرب الأول : – ما ورد على طريق الحكاية، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين،– الضرب الثاني : ما أقسم الله تعالى به ، وهذا على نوعين: النوع الأول : القسم المضمر ، وهو القسم المحذوف، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام،النوع الثاني : القسم الظاهر ، وهو الملفوظ

– تعد التاء إحدى ثلاثة حروف تختص بالقسم وهي كل من الباء والواو والتاء وهذه الثلاث هي أيضا حروف جر من حيث العمل، وتختص التاء ُ،في أنها لا تدخل إلا علي لفظ الجلالة بخلاف الواو ،التي تدخل عَلَي الاسم الظاهِرِ فقط،وبخلاف الباءُ ، التي لا تختص بلفظ دون لفظ ، بل تدخل علي الاسم الظاهر،وعلي الضمير.

–ذكر النحاة أن التاء فرع الواو؛لأن الواو تدخل على كل ظاهر، مقسم به. والواو فرع الباء.

– تأتي التاء لمعنى التعجب من المقسم عليه.

– أحصينا الآيات التي جاء القسم بها بالتاء فوجدناها بلغت تسعة مواضع جاءت على ثلاثة اضرب الأول ما ورد على طريق الحكاية ، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين وورد في خمسة مواضع ، والثاني القسم ضمن حكاية بعض أحوال يوم القيامة وورد في موضعين ،والثالث ما أقسم الله تعالى به وهو ظاهر ملفوظ وورد في موضعين أيضاً.

The Rhetorical Function of using Oath by(Ta'a) in the Holy Quran

Lect.Dr.Omar khalil hamdoon

Abstract

. The present paper is divided in to five sections preceded by most important finding arrived at by the researcher The first section seals with oath from language to terminology The second section is devoted to discussing the (Ta'a) of Oath.The third section tackles the Oath by (Ta'a) in the Quranic narrations. The fourth section is concerned with the use of oath within the descriptions of some conditions of Doomsday-Finally the fifth section deals with the use of explicit oath by(Ta'a).